مجلـــــة السعيد للعلـــــوم الإنســـانيـــة والتطبيقية
AL - Saeed Journal of Humanities and Applied Sciences
ISSN: 2616 – 6305 (Print) ISSN: 2790 – 7554 (Online)
https://alsaeeduni.net/colleges/research-and-strategic/2017-03-10-08-03-59

الوقف في عصر الدولة الأيوبية وأثره في النهضة الحضارية

الباحث/ عبدالرحمن محمد دحان العربي
ماجستير ثقافة إسلامية
Alarpi2025@gmail.com

تاريخ تسليم البحث 25/2/2022 تاريخ قبوله للنشر 13/3/2022

الوقف في عصر الدولة الأيوبية
وأثره في النهضة الحضارية

الباحث/عبدالرحمن محمد دحان العربي
طالب ماجستير

ملخص البحث

يدرس هذا البحث الوقف في عصر الدولة الأيوبية وأثره في النهضة الحضارية.

هدف البحث: إظهار مكانة الوقف في العصر الأيوبي ومجالاته، وارتباطه بالواقع المعاصر وأهميته في التنمية الاجتماعية والحضارية.

ويتكون البحث من تمهيد وثلاثة مباحث، تناول التمهيد التعريف بمصطلحات البحث، ثم المبحث الأول وكان بعنوان: ثمرات الوقف في العصر الأيوبي، وحمل المبحث الثاني عنوان: أنواع الواقفين، والمبحث الثالث: ناقش مجالات الوقف في العصر الأيوبي.

وقد خلص البحث إلى جملة من النتائج والتوصيات، على النحو الآتي

١- انتشار الوقف في العصر الأيوبي في كثير من مجالات ومناحي الحياة الاجتماعية والحضارية عموماً، الأمر الذي كان له الأثر الكبير في الدفع بعجلة التنمية الحضارية في واقع وحياة المسلم حينها.

٢- كان لتنوع فئات المجتمع المختلفة بالوقف أثره ودلالته فيما وصلت إليه النهضة الحضارية في العصر الأيوبي، الأمر الذي يستوجب الاهتمام بالأوقاف واستغلالها في المناشط العلمية والاجتماعية والحضارية عموما في الوقت الراهن.

٣- توصل البحث إلى دور المرأة وحضورها البارز في الوقف في العصر الأيوبي من خلال الأوقاف التي سبلتها في مختلف مجالات الحياة الاجتماعية والعلمية والصحية.

٤- إن تعدد منافع الوقف الحضارية والإنسانية وتطبيقها عمليا في العصر الأيوبي دليل واضح على قيم الإسلام العظيمة وعلى عالمية الإسلام وشموليته لكل بني الإنسان.

الكلمات المفتاحية: الوقف، الوقف وأثره، العصر الأيوبي، النهضة، الحضارة، النهضة الحضارية.

Waqf in the Ayubid era and its impact on the development of civilization

Researcher AbdulRahman Mohammed Dahan Arabic
Master of Islamic Culture

Search summary

This research examines the Waqf in the Ayyubid era and its impact on the civilizational Renaissance.

Research objective: to show the status of the Waqf in the Ayyubid era and its fields, its connection with contemporary reality and its importance in social and civilizational development.

The research consists of a preface and three topics, dealt with the introduction of search terms, then the first topic was entitled: fruits of the endowment in the Ayyubid era, and the second topic titled: Types of waqfin, and the third topic: discussed areas of endowment in the Ayyubid era.

The research concluded a series of conclusions and recommendations, as follows:

1- the spread of waqf in the Ayyubid era in many areas and aspects of social and civilizational life in general, which had a great impact in pushing the wheel of civilizational development in the reality and life of the Muslim at the time.

2- -the diversity of the different groups of society in the Waqf had its impact and significance in terms of the civilizational renaissance in the Ayyubid era, which requires attention to Waqf and its exploitation in scientific, social and civilizational activities in general at the present time.

3- the research reached the role of women and their prominent presence in the Waqf in the Ayyubid ERA through the Waqf that she facilitated in various areas of social, scientific and health life.

4- the multiplicity of cultural and humanitarian benefits of Waqf and its practical application in the Ayyubid era is a clear evidence of the great values of Islam and the universality of Islam and its comprehensiveness to all human beings.

Keywords: (Waqf, Waqf and its impact, Ayyubid era, renaissance, civilization, civilizational renaissance)

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله؛ محمد الهادي الأمين، وعلى آله وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فللوقف أهمية كبرى في بناء الحضارات، وتنمية المجتمعات؛ عبر المؤسسات والمركز العلمية التي يتبناها الوقف، والتي كان لها دور كبير في عجلة التنمية والعملية التعلمية في الحضارة الإسلامية وخاصة العصر الأيوبي، الذي تعددت وتنوعت فيه مجالات الأوقاف المسبلة على صنوف الخير ووجوه البر، من محاضن ومساكن ومراكز ومؤسسات علمية وتربوية.

وللوقف في الإسلام أثره في صيانة البشرية وحماية المجتمع من الانحراف بتجفيف منابع الإجرام كالسرقة والسلب والإكراه، التي يلجأ إليها من ضعفت نفسه، فتحتوي الأوقاف ذلك بتوفير السكن والمعيشة وما يحتاج إليه الفقراء والمساكين لسد احتياجاتهم.

ومما يتميز به الوقف في الإسلام بشكل عام وفي العصر الأيوبي بشكل خاص الذي يمتد من العام (٥٦٧ه/١١٧١م) بداية تأسيس الدولة الأيوبية على يد صلاح الدين الأيوبي إلى العام (٦٤٨ه/١٢٥٠م) وقت سقوط الدولة الأيوبية؛ انتشاره بشكل ملحوظ، وتعدد منافعه، ولم يكن الوقف محصوراً على طبقة السلاطين والأمراء، بل شارك في ذلك العلماء ورجال الدولة، حتى النساء كان لهن المشاركة الفاعلة في تسخير الأوقاف للسير بعجلة التنمية الحضارية وخاصة في النصف الأول من العصر الأيوبي حتى وفاة صلاح الدين رحمه الله سنة (٥٨٩هـ) الموافق (١١٩٣م).

ولما للوقف من أهمية في الإسهام في بناء اللبنة الاجتماعية الحضارية الإسلامية فإنه يعبر عن قيم الإسلام العظيمة التي تدعو المسلم إلى تمثلها في حياته؛ كقيم التكافل والضمان الاجتماعي، والإحسان إلى الآخرين، والمسؤولية تجاه أفراد المجتمع الذي تجمعهم أيضاً قيمة عظيمة من القيم الإسلامية، وهي قيمة الأخوة الإسلامية، إضافة إلى قيمة الرحمة والرفق، والعدل وغيرها من القيم الإسلامية؛ التي كانت واقعاً ملموساً في حياة المجتمع المسلم.

ونظراً لأهمية هذا الموضوع وملامسته للواقع المعاصر وأهميته في التنمية الاجتماعية والحضارية، جاءت هذا البحث، تحت هذا العنوان: الوقف في عصر الدولة الأيوبية وأثره في النهضة الحضارية، سائلاً الله التوفيق والسداد في القول والعمل.

أهمية الموضوع وسبب اختياره:

- يعد الوقف في الإسلام تطبيق عملي لقيم الإسلام– قيمة الإحسان؛ الأخوة، الرحمة، التكافل الاجتماعي– في حياة المسلمين، نحن في مسيس الحاجة لتجسيدها اليوم في واقعنا.
- تبرز أهمية الوقف في الإسلام بشكل عام وفي العصر الأيوبي بشكل خاص نظرا لتنوع مجالاته وتعدد منافعه وأوقافه العظيمة التي شملت الجوامع والمساجد والمدارس والبيمارستانات، والمراكز والمؤسسات الدعوية المتنوعة وهو ما أحدث تنمية حضارية كبيرة في مختلف مجالات الحياة إضافة لقيام هذه المؤسسات بدورها الريادي والحضاري في العصر الأيوبي.
- أن البحث والكتابة في موضوع الوقف يفتح آفاقاً كثيرة لتطبيق ذلك في واقعنا المعاصر، وتشجيع الواقفين على أهمية ذلك في الدفع بعجلة التنمية وتحقيق مكسبي الدنيا والآخرة.

تساؤلات البحث:

يتمحور سؤال البحث حول الوقف في عصر الدولة الأيوبية وأثره في النهضة الحضارية، ويتفرع منه التساؤلات الآتية:

- ما هو تعريف الوقف لغة واصطلاحاً، والنهضة لغة واصطلاحاً، والعصر لغة واصطلاحاً والحضارة لغة واصطلاحاً؟
- ما هي مجالات الوقف في عصر الدولة الأيوبية، ما أنواع الواقفين، وما هي ثمرات الوقف في عصر الدولة الأيوبية وأثره في إحداث النهضة الحضارية؟

منهج البحث:

يقتضي البحث استخدام عدد من المناهج العلمية؛ أهمها: المنهج التاريخي باسترداد المعلومات عن الوقف في العصر الأيوبي، والمنهج الوصفي الذي يصف ماهية الوقف في العصر الأيوبي، وتحليل النصوص المصدرية التي تناولت الوقف في العصر الأيوبي باستعمال المنهج التحليلي.

الدراسات السابقة:

من خلال التقصي والبحث لم أجد دراسات سابقة عن الوقف في العصر الأيوبي وأثره في النهضة الحضارية، إلا ما كتب هنا وهناك عن بعض مفردات البحث، كالوقف في بلاد الشام في العصر الأيوبي أنواع ورسومه وتقاليديه، رسالة ماجستير جامعة تكريت، للباحثة حنان الملا، ووقف المرأة في دمشق في العصر الأيوبي، رسالة ماجستير في جامعة آل

البيت، للباحثة عودة الشرعة، والوقف والحياة الاجتماعية ف مدينة دمشق خلال العصر الأيوبي، رسالة ماجستير في جامعة اليرموك للباحث مبارك جازع، وأثر الوقف في فلسطين في العصر الأيوبي، بحث منشور في مجلة البحث العلمي في كلية الآداب جامعة عين شمس، للباحثة حسناء الدمرداش، ومن خلال ما تقدم نجد أن هذه البحوث أو المقالات لم تتناول الوقف والنهضة الحضارية في العصر الأيوبي، ولذلك ارتأيت أن يكون عنوان بحثي هو الوقف في عصر الدولة الأيوبية وأثره في النهضة الحضارية.

خطة البحث:

يتكون البحث من تمهيد وثلاثة مباحث، تناول التمهيد التعريف بمصطلحات البحث، ثم المبحث الأول وكان بعنوان: ثمرات الوقف في العصر الأيوبي، وحمل المبحث الثاني عنوان: أنواع الواقفين، والمبحث الثالث: ناقش مجالات الوقف في العصر الأيوبي.

التمهيد: التعريف بمصطلحات الدراسة:

الوقف لغة واصطلاحاً:

الوقف لغة: الواو والقاف والفاء: أصل واحد يدل على تمكث في شيء، ومنه الوقف، ويمكن أن يسمى وقفاً لأنه قد وقف بذلك المكان، ووقف الدار على المساكين إذا حبسه، وحبسه، أي: أمسكه عن وجه، ومنه وقف الدار على الورثة: حبسها لمنفعتهم(١)، ومما سبق يتبين أن الوقف في الاستعمال اللغوي يأتي بمعان عدة، منها: الحبس، والإمساك، والمنع من التصرف.

الوقف في الاصطلاح: حبس أرض أو ممتلكات عقارية على ملك الواقف أو على ملك الله تعالى، والتصدق بالمنفعة(٢)، وفي التعريفات: حبس العين على ملك الواقف، والتصدق بالمنفعة(٣).

ويمكن أن يعرف الوقف في هذا البحث بأنه: تخصيص مال أو عين للانتفاع بها في مناشط متنوعة دينية أو اجتماعية أو علمية أو اقتصادية.

العصر لغة: عصر: العين والصاد والراء أصول ثلاثة صحيحة، فالأول دهر وحين، والثاني ضغط شيء حتى يتحلب، والثالث تعلق بشيء وامتساك به، فالأول العصر، وهو الدهر قال

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة: أحمد بن فارس، دار الفكر ١٩٧٩م: ١٣٥/٦، لسان العرب لابن منظور، دار صادر – بيروت، ط٣، ١٤١٤ه، ٣٥٩/٩.

(٢) معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عبد الحميد عمر، بمساعدة فريق عمل، عالم الكتب، ط١، ٢٠٠٨م: ٢٤٨٥/٣.

(٣) التعريفات: علي بن محمد الجرجاني، دار الكتب العلمية بيروت- لبنان، ط١، ١٤٠٣ه: ص ٢٥٣.

تعالى: {والعصر. إن الإنسان لفي خسر}[٤]، وربما قالوا عصر، وعاصره: عاش معه في عصر واحد، أي في زمن واحد[٥].

والعصر: الوقت في آخر النهار إلى احمرار الشمس... والعصران الغداة والعشي والليل والنهار، والدهر والزمن ينسب إلى ملك أو دولة أو إلى تطورات طبيعية أو اجتماعية، والعصر الحجري، وعصر البخار والكهرباء، وعصر الذرة، ويقال (في التاريخ): العصر القديم، والعصر المتوسط، والعصر الحديث، و (في الجيولوجيا): حقبة طويلة من الزمن تقدر بعشرات الملايين من السنين... يقال: العصر الفحمي (الكربوني)، والعصر الطباشيري[٦].

وعلى ذلك فالعصر اصطلاحاً في هذه الدراسة: هو الفترة الممتدة من بداية تأسيس الدولة الأيوبية في العام ٥٦٧هـ، الموافق ١١٧١م، على يد الناصر صلاح الدين الأيوبي، إلى سقوط الدولة في العام ٦٤٨هـ، الموافق ١٢٥٠م، والممتدة لثمانية عقود، وتحديد العصر بالأيوبي: لإخراج ما قبله أو بعده من العصور.

الأيوبية: نسبة إلى أيوب بن شاذي، الملقب بالملك الأفضل نجم الدين والد السلطان صلاح الدين يوسف، كما اتفق أهل التاريخ أن الأيوبيين ينتمون إلى بلدة دوين[٧]، وأنهم أكراد روادية، والروادية بطن من الهذبانية وهي قبيلة كبيرة، وهذا النسل هم أشراف الأكراد[٨].

وقد اختلف المؤرخون في نسب الأيوبيين[٩] إلا أنه مهما كان الاختلاف فإنه لا يستحق

---

(٤) سورة العصر، الآيات ١-٢، الجزء الثلاثون.

(٥) ينظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس، مرجع سابق: ٣٤٠/٤، معجم اللغة العربية المعاصرة، مرجع سابق: ١٥٠٧/٢.

(٦) ينظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة (إبراهيم مصطفى- أحمد الزيات – حامد عبد القادر – محمد النجار)، دار الدعوة ٦٠٤/٢.

(٧) دَوِينُ: بفتح أوله، وكسر ثانيه، وياء مثناة من تحت ساكنة، وآخره نون: بلدة من نواحي أرّان في آخر حدود أذربيجان بقرب تفليس، منها ملوك الشام بنو أيوب، (معجم البلدان: ياقوت الحموي، دار صادر- بيروت، ط٢، ١٩٩٥م، ٤٩١/٢، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: شمس الدين ابن خلكان، دار صادر بيروت، ط٠، ١٩٠٠م، ١٣٩/٧).

(٨) ينظر: الكامل في التاريخ، لابن الأثير، دار الكتاب العربي لبنان، ط١، ١٩٩٧م، ٣٤٢/٩، ذيل مرآة الزمان قطب الدين موسى بن محمد اليونيني، دار الكتاب الإسلامية-القاهرة، ط٢، ١٩٩٢م: ٣٧/١.

(٩) أنكر جماعة من بني أيّوب النّسبة إلى الأكراد، وقالوا: إنما نحن عرب نزلنا عند الأكراد، وتزوَّجنا منهم، وادعى المعز إسماعيل بن سيف الإسلام ابن أيوب ملك اليمن نسباً في بني أمية. يقول ابن كثير رحمه الله: وما ادَّعاه ليس بصحيح، ولا أصل له يُعتمد عليه، ولا مستندَ يُستند إليه، وقد أنكر صلاح الدين النسبة لبني أمية وقال: ليس لهذا أصل أصلاً، وذكر المقريزي في نسب صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادي بن مروان بن أبي علي بن عنترة الحسن بن علي بن أحمد بن أبي علي بن عبد العزيز بن هدبة بن الحصين بن الحارث ين

الوقوف كثيراً عنده، لأن المفاضلة في الإسلام مبنية على التقوى والعمل، فقد بذل الأيوبيون أنفسهم وأموالهم في سبيل الله ورفع راية الإسلام، منافحين عن حياضه، ومدافعين عن بلاده، وقد تكلموا اللغة العربية، ودافعوا ونافحوا عنها، وسكنوا البلاد العربية، وساهموا في صنع أحداث التاريخ الإسلامي، وخاصة في فترات الحروب الصليبية(١٠).

الأثر لغة: بقية الشيء، والتأثير: إبقاء الأثر في الشيء، وأثر في الشيء، أي: ترك فيه أثراً، والآثار: الأعلام، والتأثير: إبقاء الأثر في الشيء، وتأثر بالشيء: ظهر فيه الأثر وفيه تطبع، وقد يقال في الأثر: العلامة، وقد يقال فيه: لمعان السيف(١١)، وفي التعريفات للجرجاني: الأثر: له ثلاثة معانٍ: الأول، بمعنى: النتيجة، وهو الحاصل من الشيء، والثاني بمعنى العلامة، والثالث بمعنى الجزء(١٢).

الأثر في الاصطلاح: النتيجة والتغير الذي أحدثه الوقف في جميع الجوانب الحضارية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية في حياة الفرد والمجتمع ككل.

فقد كان للوقف في عصر الدولة الأيوبية دوره البارز في الحفاظ على الهوية الإسلامية من الانصهار في الهويات الأخرى، وانتشار الإسلام الوسطي في المجتمعات.

الحضارة في اللغة: حَضَرَ: الحاء والضاد والراء إيراد الشيء، وروده ومشاهدته، والحاضِرَة والحَضْرَةُ والحَضَرُ هي: المدن والقرى والريف، سميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار(١٣)، وحضارة: تمدن، عكس البداوة(١٤)، ومن خلال

سنان بن عمرو بن مرة ابن عوف. (ينظر: وفيات الأعيان لابن خلكان: ١٤١/٧، نسب الأيوبيين للملك الأمجد الأيوبي: قدم له صلاح المنجد، دار الكتاب الجديد-بيروت، ط١، ١٩٧٨م، ص ٣٥-٥٩، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، شمس الدين الذهبي، دار الكتاب العربي- بيروت، ط٢، ١٤١٣ه، ١٩٥/٣٩، البداية والنهاية لابن كثير، دار الفكر، ١٩٨٦م: ٢٧١/١٢، السلوك لمعرفة دول الملوك: أحمد بن علي عبد القادر المقريزي، دار الكتب العلمية- لبنان، ط١، ١٩٩٧م ١٤٨/١-١٤٩).

(١٠) وهي الحملات والحروب التي قام بها الأوربيون على بلاد المسلمين من أواخر القرن الحادي عشر الميلادي حتى الثلث الأخير من القرن الثالث عشر الميلادي، بدوافع دينية وتحت شعار الصليب، وبلغ عدد هذه الحملات حوالي ١٠ حملات تركزت على بلاد الشام بسبب وجود المسجد الأقصى في فلسطين. (ينظر: دراسات في تاريخ الأيوبيين: حمدي عبد المنعم، دار المعرفة، ٢٠٠٠م، الحركة الصليبية: سعيد عبد الفتاح عاشور، مكتبة الانجلو المصرية، ط١، ٢٠١٠م، ماهية الحروب الصليبية: قاسم عبده قاسم، عالم المعرفة، ١٩٩٠م).

(١١) ينظر: لسان العرب لابن منظور: ٥/٤، مختار الصحاح الزين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الرازي، المكتبة العصرية- بيروت، ط٥، ١٩٩٩م: ص١٣، المعجم الوسيط: ٥/١.

(١٢) التعريفات للجرجاني: ص٩.

(١٣) معجم مقاييس اللغة لابن فارس: ٧٥/٢، تاج العروس للزبيدي: ٤٠/١١.

(١٤) معجم اللغة العربية المعاصرة: ٥١٣/١.

المعاني التي جاءت في اللغة؛ يمكن القول أن معنى الحضارة في اللغة يعني: القرار في المدينة وسكنها وبناءها وتعميرها.

الحضارة في الاصطلاح: هي: الحصيلة الشاملة للمدنية، والثقافية، والفكر، ومجموع الحياة، في أنماطها المادية والمعنوية(١٥)، أو هي عبارة عن: مظاهر الرقي العلمي والفني والأدبي والاجتماعي في الحضر(١٦).

والخلاصة من دراسة هذه المصطلحات هو بيان أثر الوقف في عصر الدولة الأيوبية في التنمية الحضارية رغم قلة سنوات هذه الدولة، لتجسد هذه الآثار العظمية بين أفراد المجتمع المسلم؛ قوله صلى الله عليه وسلم من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه: (مثل المؤمنين في توادهم، وتراحمهم، وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)(١٧).

المبحث الأول: ثمرات الوقف في العصر الأيوبي وأثره في النهضة الحضارية:

ساهم الوقف في العصر الأيوبي في شتى مناحي الحياة الاجتماعية والعلمية والثقافية والحضارية، وكان له ثمار كبيرة، أهمها:

أولًا: التكافل الاجتماعي: الذي يشعر أفراد المجتمع باللحمة الواحدة، يقول تعالى: {إنما المؤمنون أخوة}(١٨)، وفي الحديث يقول عليه الصلاة والسلام المؤمنون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)، وكانت الأوقاف في العصر الأيوبي لها دور كبير في تطبيق هذا المبدأ كنموذج عملي لما يجب عليه أن يكون واقع البيئة الإسلامية، فقد انتشرت المؤسسات الوقفية في نواحي البلاد الأيوبية التي تؤوي المحتاج وتعين الفقير.

ثانيًا: إبراز قيم الإسلام السمحة كقيمة الأخوة والمواساة والتعاون من خلال استشعار المسؤولية تجاه فئات المجتمع الضعيفة عبر بناء المرافق المهيئة لاستقبال المحتاجين والغرباء وابن السبيل، وكذلك الأوقاف لفكاك أسرى المسلمين التي كانت ترجمة عملية لروح

---

(١٥) الحضارة الإسلامية: أحمد عبد الرحيم السايح، مجلة الجامعة الإسلامية، طبعة السنة العاشرة، العدد الثالث ١٣٩٧ه، ص٧٠.

(١٦) معجم اللغة العربية المعاصرة: ٥١٣/١.

(١٧) أخرجه مسلم في صحيحه، دار إحياء التراث العربي -بيروت، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ج١٩٩٩/٤م، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، برقم ٢٥٨٦، ج١٩٩٩/٤.

(١٨) سورة الحجرات، آية ١٠، الجزء السادس والعشرون.

الأخوة والمودة التي أوجبها الإسلام على أتباعه(١٩).

ثالثًا: قيام المدارس والمركز والمؤسسات بدورها الريادي والحضاري، ولذلك نلحظ أن هذه المؤسسات التي أنشأت في العصر الأيوبي كانت لها أوقافاً يرجع عائدها عليها للقيام بدورها الريادي، من رواتب وجرايات شهرية على المعلمين وطلاب العلم، وكذلك بتوفير المسكن والإعاشة لهم.

رابعًا: الرعاية الصحية التي كان يتلقاها المرضى، فقد كانت البيمارستانات في العصر الأيوبي تؤدي دوراً مهماً في توفير الرعاية الصحية للمجتمع الأيوبي، ويظهر ذلك في اهتمام صلاح الدين الأيوبي وبنائه عدة بيمارستانات وتسبيل الأوقاف لها، ومن ذلك: البيمارستان الصلاحي في القاهرة، والبيمارستان الذي بناه في القدس، والبيمارستان القيمري كما سيأتي معنا.

المبحث الثاني: أنواع الواقفين:

ونلحظ الاهتمام بالوقف في العصر الأيوبي من تسابق الأمراء والعلماء والميسورين من العامة في واقع المجتمع الأيوبي على مثل هذه الأوقاف، حتى النساء الأيوبيات الملقبات بالخواتين؛ وكل ذلك وقفاً على وجوه البر، وإنفاقاً في سبيل الله، وتحقيقاً لمبدأ التكافل والتكاتف والتعاون بين أفراد المجتمع، فيذكر الرحالة ابن جبير في رحلته إلى دمشق في عهد صلاح الدين رحمه الله، فيقول: "حتى إن البلد تكاد الأوقاف تستغرق جميع ما فيه، وكل مسجد يستحدث بناؤه أو مدرسة أو خانقة يعين لها السلطان أوقافا تقوم بها وبساكنيها والملتزمين لها، وهذه أيضاً من مفاخره المخلدة، ومن النساء الخواتين ذوات الأقدار من تأمر ببناء مسجد أو رباط أو مدرسة، وتنفق عليها الأموال الواسعة، وتعين أوقافاً لها من مالها، ومن الأمراء من يفعل مثل ذلك، لهم في هذه الطريقة المباركة مسارعة مشكورة عند الله عز وجل"(٢٠).

ويمكن استعراض أبرز الواقفين في العصر الأيوبي على النحو الآتي:-

١ - الأمراء والسلاطين: وقد جسد فئة الأمراء والسلاطين صلاح الدين الأيوبي رحمه الله إذ كان له قصب السبق في أعمال البر والخير، "فالروايات كثيرة تدل على أوقاف صلاح الدين للقرى والضياع وما تحويه من مواد وأرباح على الفقراء والمحتاجين، وبناء الخانات في

(١٩) روائع الأوقاف في الحضارة الإسلامية: راغب السرجاني، نهضة مصر للطباعة والنشر، ط١، ٢٠١٠: ص١١٨.

(٢٠) ينظر: رحلة ابن جبير: ص٢٢٣.

الأماكن المنقطعة البعيدة عن العمران وفي الطرق الموصلة بين المدن خدمة لأنباء السبيل والمسافرين"[٢١].

وقد بنى صلاح الدين المدارس برسم الفقهاء من المذاهب الفقهية الأربعة وأوقف عليها الأوقاف التي تقوم بما تحتاجه من رعاية، ومن هذه المدارس:

- المدرسة الناصرية التي أنشأها صلاح الدين برسم الفقهاء الشافعية، وهي أول مدرسة بنيت في مصر سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م[٢٢]، وهي غير المدرسة الناصرية الجوانية التي بناها أيضاً السلطان صلاح الدين بجانب الجامع الأموي، والتي درس بها قاضي القضاة صدر الدين ابن سنى الدولة والقاضي شمس الدين ابن خلكان[٢٣].
- المدرسة القمحية بجوار الجامع العتيق بمصر، أنشأها السلطان صلاح الدين للفقهاء المالكية سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م، وهذه المدرسة من أجل المدارس للفقهاء المالكية، عرفت بالقمحية للقمح الذي كان يأتي من ريع أوقافها[٢٤].
- المدرسة السيوفية في مصر التي أوقفها على الحنفية ورتب لمدرسها أحد عشر ديناراً، وباقي ريع الوقف يصرف على باقي الطلبة، عرفت بالسيوفية من أجل السوق الذي كان على بابها، وهذه المدرسة هي أول مدرسة وقفت على الحنفية بديار مصر[٢٥].
- المدرسة الصلاحية تاج المدراس وأعظمها، بناها السلطان صلاح الدين سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦م، في مصر بجوار قبر الشافعي، وشرط لمدرسها في كل شهر أربعين دينار[٢٦]، زارها الرحالة ابن جبير فتعجب منها فيقول: "لم يعمر بهذه البلاد مثلها، لا أوسع

(٢١) ينظر: صلاح الدين الأيوبي الايوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية، علي محمد محمد، دار المعرفة بيروت، ط١، ١٤٢٩: ص٣٥٤

(٢٢) ينظر: المواعظ والاعتبار للمقريزي، دار الكتب العلمية -بيروت، ط١، ١٤١٨ه: ٢٠٠/٤.

(٢٣) ينظر: الدراس في تاريخ المدارس: عبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٠م: ٣٥٠/١.

(٢٤) ينظر: تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر: عبد الرحمن ابن خلدون، ت: خليل شحادة، دار الفكر-بيروت، ط٢، ١٤٠٨ه.: ٦٦٨/٧، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء: احمد بن علي القلقشندي، دار الكتب العلمية-بيروت: ٣٩٠/٣، المواعظ والاعتبار للمقريزي: ٢٠١/٤.

(٢٥) ينظر: المواعظ والاعتبار للمقريزي: ٢٠٤/٤.

(٢٦) ينظر: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة: جلال الدين السيوطي، دار إحياء الكتب العربية-مصر، ط١، ١٩٦٧م: ٢٥٧/٢، التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني في المشرق الإسلامي من القرن الخامس الهجري حتى سقوط بغداد، عبد المجيد أبو الفتوح بدوي، دار الوفاء للطباعة والنشر، ط٢، ١٩٨٨م: ٢٣٣.

مساحة ولا أحفل بناء، يخيل لمن يطوف عليها أنها بلد مستقل بذاته، بإزائها الحمّام، إلى غير ذلك من مرافقها، والبناء فيها حتى الساعة، والنفقة عليها لا تحصى"[٢٧].

والمدرسة العادلية التي عمرها الملك العادل أبوبكر بن أيوب أخو السلطان صلاح الدين في مصر وأوقفها للمالكية، فعرفت به، وهي عامرة[٢٨]، والمدرسة الأسدية التي أنشأها أسد الدين شيركوه في دمشق، على الشافعية والحنفية[٢٩]، والمدرسة الزنجيلية التي أنشأها الأمير عز الدين أبو عمرو عثمان بن علي الزنجيلي نائب عدن، على باب العمرة في الحرم المكي وتعرف بدار السلسلة، وقفها على الحنفية سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م[٣٠].

والمدرسة المعزية أو مدرسة الميلين: التي بناها الملك المعز إسماعيل بن طغتكين بن أيوب سنة ٥٩٤هـ/١١٩٨م، وسميت بالمعزية أو مدرسة المعز نسبة إليه، وتقع في مدينة زبيد، والمعز هو أول من أسس المدارس باليمن[٣١].

والمدرسة الصالحية التي بناها الملك الصالح نجم الدين بن الكامل على المذاهب الأربعة سنة ٦٣٩هـ/١٢٤١م، ورتب فيها دروساً لهذه المذاهب، وهو أول من عمل بديار مصر دروساً أربعة في مكان، وهي من أجل مدارس القاهرة[٣٢].

٢-العلماء والتجار: ومن العلماء الذين كان لهم مساهمة كبيرة في الأوقاف؛ القاضي الفاضل عبدالرحيم البيساني، فقد بنى المدرسة الفاضلية سنة ٥٨٠هـ، وأوقفها على طائفتي الفقهاء الشافعية والمالكية، جعل فيها قاعة للإقراء، أقرأ فيها الإمام الشاطبي ناظم الشاطبية، ووقف القاضي الفاضل بهذه المدرسة جملة عظيمة من الكتب في سائر العلوم[٣٣]، حيث اشترى القاضي الفاضل أكثر كتب خزانة المكتبة الفاطمية وأوقفها لهذه المدرسة، فبقيت هذه الكتب في هذه المدرسة حتى استولت عليها الأيادي، فلم يبقى منها إلا القليل[٣٤]، وللفاضل أوقافاً عظيمة في فكاك أسرى المسلمين، وسيأتي بيان ذلك إن شاء الله.

٣-وقفيات النساء: ومما شاع وانتشر ودل على مكانة المرأة في العصر الأيوبي، إضافة

(٢٧) رحلة ابن جبير: ص٢١.
(٢٨) المواعظ والاعتبار للمقريزي: ٢٠٣/٤.
(٢٩) ينظر: الدراس للنعيمي: ١١٤/١، ٣٦٢.
(٣٠)ينظر: العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين للفاسي: دار الكتب العلمية-بيروت، ط١، ١٩٩٨م: ١٧٣/٥.
(٣١) ينظر: المدارس الإسلامية في اليمن: إسماعيل بن علي الأكوع، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٠٠ه، ط٢، ١٤٠٦: ص١٠.
(٣٢) ينظر: حسن المحاضرة للسيوطي: ٢٦٣/٢.
(٣٣) ينظر: المواعظ والاعتبار للمقريزي: ٢٠٤/٤.
(٣٤) ينظر: صبح الأعشى للقلقشندي: ٥٣٧/١.

لمساهمتهن في الحركة العلمية والثقافية؛ الأوقاف المسبلة، على وجوه البر والإحسان، وهذا مما تميزت به المرأة في الإسلام عن غيرها في جميع الأديان، فقد جعل الإسلام للمرأة الحرية في مالها، وعلى مر عصور الإسلام كان للمرأة أوقافها، ومساهمتها في الحياة الفكرية والعلمية بشتى مجالاتها، إلا أن العصر الأيوبي بالتحديد أكثر العصور من المرأة اهتماماً بالوقف، وذلك لانتشار الحركة الثقافية في المجتمع، وسابقت النساء الرجل بالأعمال الخيرة، يقول ابن جبير في رحلته إلى دمشق: "ومن النساء الخواتين[٣٥] ذات الأقدار من تأمر ببناء مسجد أو رباط أو مدرسة وتنفق الأموال الواسعة، وتعين لها من مالها الأوقاف"[٣٦].

ومن أبرز الشخصيات النسائية التي لعبت دوراً هاماً في العصر الأيوبي، وفي الأوقاف العظيمة، عصمة الدين خاتون بنت معين الدين أنر؛ ابتداءً بزواجها من الملك العادل نور الدين، ثم زواجها من السلطان صلاح الدين رحمه الله، فكانت لهما نعم المرأة العفيفة الناصحة، وقد أنشأت المدرسة الخاتونية بدمشق للحنفية، وبنت خانقاه في بانياس للصوفية، وبنت للفقهاء الصوفية بدمشق مدرسة ورباطاً[٣٧].

وأنشأت ست الشام[٣٨] المدرسة الشامية البرانية التي أوقفت على الشافعية، وهي من أكبر المدارس وأعظمها، وأكثرها فقهاء، وأكثرها أوقافاً، وكذلك المدرسة الشامية الجوانية بجانب البيمارستان النوري، وأوقفت على هذه المدراس الأوقاف العظيمة[٣٩]، وكانت ست الشام سيدة الخواتين، عاقلة، كثيرة البر والصلات، والإحسان والصدقات، وكان يعمل في دارها من الأشربة والمعاجين والعقاقير في كل سنة بألوف دنانير تفرقها على الناس، وكان بابها ملجأ للقاصدين، ومفزعا للمكروبين، أوقفت دارها قبيل وفاتها بدمشق مدرسة، وأوقفت

(٣٥) ينظر: معجم اللغة العربية المعاصرة: ٦٠٣/١.

(٣٦) رحلة ابن جبير: ٢٢٣.

(٣٧) ينظر: شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد: دار ابن كثير- دمشق- بيروت، ط١، ١٩٨٦م: ٤٤٧/٦.

(٣٨) الست الجليلة المصونة خاتون ست الشام بنت أيوب بن شادي، وهي واقفة المدرستين البرانية والجوانية، وتعرف بالحسامية نسبة إلى ابنها حسام الدين بن لاجين، توفيت في دارها التي جعلته مدرسة سنة ٦١٦ه (ينظر: مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي: ٢٤١/٢٢، الذيل على الروضتين: لأبي شامة عبدالرحمن بن إسماعيل المقدسي، دار الجيل- بيروت، ط٢، ١٩٧٤م، ص١١٩، البداية والنهاية لابن كثير: ٨٤/١٣).

(٣٩) ينظر: مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، سبط ابن الجوزي، دار الرسالة العلمية دمشق، ط١، ٢٠١٢م: ٢٤١/٢٢، الدراس للنعيمي: ٢٠٨/١، ٢٢٧.

على التربة والمدرسة الجوانية أوقافاً كبيرة(٤٠).

وأما ربيعة خاتون بنت نجم الدين أيوب، أخت السلطان صلاح الدين رحمه الله؛ لها من الأوقاف العظيمة ما يدل على فضلها، فقد أنشأت المدرسة الصاحبة أو الصاحبية في جبل الصالحية، على الحنابلة وأوقفت عليها الأوقاف الكثيرة(٤١)، والمدرسة الصاحبية بناؤها عظيم يدل على الأبهة والجلالة، وهي من الآثار التي تدل على ارتقاء الفن المعماري في ذلك الزمن، ولما بنت الصاحبة ربيعة خاتون هذه المدرسة كان افتتاحها يوماً مشهودا وحضرت الواقفة من وراء ستر(٤٢).

والست الجليلة عصمة الدين مؤنسة خاتون ابنة الملك العادل أبي بكر بن أيوب، وشقيقة الملك الأفضل قطب الدين، كان لها جهد عظيم أيضاً في الأوقاف الخيرية في العصر الأيوبي، ومن ذلك: المدرسة القطبية في القاهرة التي بنتها، وسميت نسبةً إلى أخيها الملك الأفضل قطب الدين، واشترت لهذه المدرسة أوقافاً، وجُعل فيها درس للشافعية، ودرس للحنفية(٤٣).

مما سبق يتضح أن الوقف الخيري في العصر الأيوبي لم يكن موقوفاً على طبقة الأمراء والسلاطين والميسورين من العلماء والتجار، فقد كان للنساء الأيوبيات المشاركة الفاعلة في التنمية الحضارية للمجتمع الأيوبي، ومن الممكن أن "تطلق على العصر الأيوبي عصر الوقوف النسائية، ويعود ذلك لكثرة الوقوف النسائية على المؤسسات الاجتماعية في المجتمع، بل نافسن الرجال في تلك المآثر وأفعال الخير"(٤٤).

المبحث الثالث: مجالات الوقف في العصر الأيوبي:

تعددت وتنوعت مجالات الوقف في العصر الأيوبي حتى شملت مجالات شتى من مجالات الحياة، تلبية لحاجات المجتمع العلمية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية والإنسانية، ومن هنا تبرز أهمية الوقف الإسلامي عبر ما تقدمه المؤسسات الوقفية من أعمال الخير والأوقاف العظيمة على الجوامع والمساجد والمدارس والبيمارستانات، والربط والتكايا ودار

(٤٠) ينظر: مرآة الزمان لسبط الجوزي: ٢٤١/٢٢.

(٤١) ينظر: مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي: ٣٩١/٢٢، الدراس للنعيمي: ٦٢/٢.

(٤٢) ينظر: منادمة الأطلال ومسامرة الخيال: لابن بدران، ت: زهير الشاوش، المكتب الإسلامي-بيروت، ط٢، ١٩٨٥م: ص٢٣٧.

(٤٣) ينظر: المواعظ والاعتبار للمقريزي: ٢٠٨/٤.

(٤٤) الوقف والحياة الاجتماعية في مدينة دمشق خلال العصر الأيوبي، مبارك عشوي فلاح، الأمانة العامة للأوقاف- الكويت، ١٤٣٨ه: ص٩٨.

الحديث، ويمكن إجمال هذه المجالات في الآتي:

أولاً: المجال الديني والعلمي: تنوعت الأوقاف في العصر الأيوبي لتشمل بناء المساجد وتعميرها، أو الأوقاف التي يعود ريعها في خدمة طلبة العلم وتسهيل طلبهم العلم، من ترتيب جرايات شهرية، أو كفاية المؤونة والسكن.

ومن أهم الأوقاف التي اهتم بها أمراء الدولة الأيوبية؛ الأوقاف على الحرمين الشريفين، ولا أدل على ذلك من تأمين وتيسير طريق حجاج بيت الله، فلم يدخر السلطان صلاح الدين رحمه الله وسعاً بتذليل الصعوبات لقاصدي بيت الله الحرام(٤٥).

فمن مفاخر السلطان المزلفة من الله التي أبقاها ذكراً جميلاً إزالته رسم المكس المضروب وظيفة على الحجاج مدة دولة العبيدين، فكان الحجاج يلاقون منه عنتاً ومشقة، وفي سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦م أمر بإبطال الغفارة التي كانت تؤخذ من الحجاج المسافرين عن طريق البحر الأحمر، وأوقف الأوقاف على الحجاج وعلى الحرمين الأوقاف، وذلك لتصرف على مؤونتهم إبان أداء فريضة الحج"(٤٦).

وكذلك ورد "في أوقاف صلاح الدين رحمه الله وقفاً من أعمال مصر على أربعة وعشرين خادماً لخدمة المسجد النبوي الشريف، وذلك في ربيع الآخر سنة ٥٦٩هـ/١١٧٤"(٤٧).

ونلحظ من هذا أن "صلاح الدين رحمه الله قد استخدم نظام الأوقاف كوسيلة لحماية فريضة الحج، واستمالة شرفاء مكة بمنحهم الأوقاف والاقطاعات بصعيد مصر ليتنازلوا عن رسوم الغفارة التي أرهقت حجاج بيت الله، كما وقف الأوقاف للصرف على القومة والسدنة والمتكفلين بخدمة الكعبة"(٤٨).

ونالت المساجد وبشكل كبير الاهتمام من هذه الأوقاف، فهي "تعد أول مراكز التعليم الإسلامي على الإطلاق، حيث إنها بالإضافة إلى كونها محل تعبد المسلمين واجتماعاتهم، كانت أيضاً معاهد مفتوحة لكل راغب في الاستزادة من العلوم والمعارف والآداب، وقد قامت

(٤٥) ينظر: صلاح الدين الأيوبي وجهوده: ٢٨١.

(٤٦) ينظر: رحلة ابن جبير: ص٢٨، تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بني أيوب، أحمد فؤاد السيد، مكتبة مدبولي، ط١، ٢٠٠٢م: ص٢٠٧.

(٤٧) ينظر: الانتصار لواسطة عقد الأمصار في تاريخ مصر وجغرافيتها: إبراهيم بن محمد المشهور بابن دقماق، المكتب التجاري للطباعة والنشر-بيروت: ٤٩/٢.

(٤٨) ينظر: تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بني أيوب: ص١٣٤.

تلك الحلق بأثر بارز في ازدهار حركة التعليم عند المسلمين"(٤٩).

واقترن بنشر الأيوبيين للمنشآت التعليمية والخيرية السنية، كثرة وقف الأوقاف والأحباس على هذه المنشآت التعليمية والخيرية، سواء من قبل الحكومة أو كبار الأمراء والتجار وغيرهم من أغنياء المجتمع، بحيث أصبح الوقف ظاهرة تسترعي النظر في العصر الأيوبي(٥٠).

"فتعتبر مؤسسة الوقف أهم مورد مالي رصد لحياة المسجد، ليستمر بكل ما يتعلق بالشؤون الإسلامية، ودور تحفيظ القرآن الكريم، وبخاصة دعم الوعاظ والحفاظ والخطباء في ممارسة أدوارهم في تنمية معاني الخير والحق، والحث على الجهاد في سبيل الله، ومعالجة قضايا الناس ومشاكلهم في الحياة"(٥١).

"وكان للأوقاف أثرها الواضح في انتشار المساجد في سائر أنحاء العالم الإسلامي، وكذلك في قيام تلك المساجد بدورها الريادي الذي كان المسجد يقوم به في عصر صدر الإسلام"(٥٢).

فيذكر ابن جبير في رحلته إلى الإسكندرية "أنها أكثر بلاد الله مساجد، وكلها بأئمة مرتبين من قبل السلطان"(٥٣).

وعندما دخل دمشق ورأى معالمها ومشاهدها وسطر رحلته فيقول: "ولكل مشهد من هذه المشاهد أوقاف معينة من بساتين وأرض بيضاء، حتى إن البلد تكاد الأوقاف تستغرق جميع ما فيه، وكل مستجد يستحدث بناؤه أو مدرسة أو خانقاه يعين لها السلطان أوقافاً تقوم بها وبساكنيها والملتزمين لها"(٥٤).

ومن الأوقاف كذلك في دمشق؛ الأوقاف على الغرباء القاصدين مساجد دمشق للتزود من العلم والقرآن، فيقول ابن جبير: "ومرافق الغرباء في هذه البلدة أكثر من أن يأخذها الإحصاء، ولا سيما لحفاظ كتاب الله عز وجل، والمنتمين للطلب، فالشأن بهذه البلدة لهم عجيب جداً"(٥٥).

---

(٤٩) ينظر: الوقف وأثره في تشيد بنية الحضارة الإسلامية، إبراهيم المزيني: ص ٥٧٩-٥٩٨.

(٥٠) ينظر: تاريخ مصر زمن سلاطين بني أيوب: ص١٢٨.

(٥١) ينظر: الوقف في الفكر الإسلامي: محمد بن عبد العزيز بن عبد الله، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية-المغرب، ١٤١٦ه: ٢/٥٧.

(٥٢) الوقف وأثره في تشيد بنية الحضارة الإسلامية: ص ٥٩٨.

(٥٣) ينظر: رحلة ابن جبير: ص١٦.

(٥٤) رحلة ابن جبير: ص٢٢٣.

(٥٥) رحلة ابن جبير: ص٢٣٢.

كذلك من مآثر السلطان صلاح الدين رحمه الله "المعربة عن اعتنائه بأمور المسلمين كافة، أنه أمر بعمارة محاضر ألزمها معلمين لكتاب الله عز وجل، وتجري عليهم الجراية الكافية لهم"(٥٦).

حيث " كانت هذه الأوقاف الكثيرة لتيسير سبل المعيشة في هذه المدارس للأساتذة والطلاب، إحدى الوسائل الهامة التي أسهمت في جذب العلماء وطلاب العلم، وقد كان من المتبع عند تأسيس أي مدرسة؛ أن يوقف عليها ما يكفي لاستمرار الحياة العلمية بها"(٥٧).

وحظيت بعض المدارس "بنصيب وافر نتيجة ثراء وقفها، فيحظى منتسبوها بنصيب من المال والمأكولات والملابس"(٥٨).

ثانياً: المجال الاجتماعي:

تنوعت مناشط الأوقاف الخيرية والاجتماعية في العصر الأيوبي؛ لتعطي صورة جليلة وواضحة لدور الأوقاف في الواقع الثقافي والاجتماعي في العصر الأيوبي، وهو "انعكاس حقيقي لروعة أخلاق الواقفين المسلمين، وتضامنهم بالمجتمع الإسلامي كله"(٥٩).

وفي نفس الوقت امتداد "رائع لحضارة الإسلام المجيد، التي اهتمت بكافة الخدمات التي احتاجتها العامة والخاصة في تلك الآونة الزاهرة"(٦٠)، وتطبيق واقعي لقيم الإسلام وإنسانيته. فمن الأوقاف الجليلة التي تدل على معاني الخير والقيم الإسلامية؛ ما يتعلق بالتكافل الاجتماعي، ويبرز ذلك ما أنشأه صلاح الدين رحمه الله في دمشق، فقد أنشأ وقفاً لإنشاء ميزاب يسيل منه الحليب، وميزاباً آخر يسيل منه الماء المذاب فيه السكر، تأتي إليه الأمهات يومين في كل أسبوع ليأخذن لأطفالهن وأولادهن ما يحتاجون إليه من الحليب والسكر"(٦١).

ومما يدل على معاني الخير وقيمة التكافل والرحمة والإحسان "حيث تجلت لنا نماذج وقفية كثيرة على الأيتام؛ فقد قام صلاح الدين رحمه الله بتخصيص وقف على محضرة للأيتام ومدرسهم وكسوتهم ... وتعيين ناظر لهم حتى يهتم بشؤونهم... وكان بعض الواقفين يوزعون

(٥٦) رحلة ابن جبير: ص٢٥.

(٥٧) ينظر: صلاح الدين الأيوبي وجهوده: ص٢٥٦.

(٥٨) الوقف والحياة الاجتماعية، مبارك عشوي: ص١٠٩.

(٥٩) ينظر: روائع الأوقاف في الحضارة الإسلامية للسرجاني: ص١٠.

(٦٠) روائع الأوقاف في الحضارة الإسلامية: ص١٢١.

(٦١) ينظر: من روائع حضارتنا، مصطفى السباعي، دار الوراق للنشر والتوزيع والمكتب الإسلامي، ط١، ١٤٢٠ه: ص٢٠٣.

اللحم على الفقراء والمحتاجين أيام الجمعة"(٦٢).

وتعميقاً لمعاني الإسلام الجليلة وقيمه السماحة؛ انتشرت الأسبلة في العصر الأيوبي انتشاراً واسعاً، "والسبيل منشأة اجتماعية إسلامية اتصلت باستخدام الماء للشرب، وهو عبارة عن مبنى جرت عادة المسلمين على إقامته داخل المدن لسقاية المارة وإروائهم من باب التقرب إلى الله تعالى، ثم انتشرت الأسبلة في مختلف العصر الإسلامية"(٦٣).

و"من أشهر الأسبلة الموقوفة التي أنشئت في حرم المسجد الأقصى ... ولم تخل مدينة أيوبية من إنشاء الأسبلة والصهاريج والفوارات الموقوفة في المساجد والطرقات العامة والأزقة وغيرها، فضلاً عن حفر الآبار في الصحاري والفيافي القاحلة"(٦٤).

وكانت في مدينة تعز في اليمن عين ماء تنزل من جبل صبر، وهو خفيف هنيء مريء، ولا يشرب الغريب إلا من هذا الماء لطيبه، فاشتراه سيف الإسلام طغتكين بعشرة آلاف دينار وسبله لجميع الناس(٦٥).

ومن الأوقاف العظيمة التي تدل على قيمة الإخاء بين المسلمين والوفاء؛ الأوقاف لفكاك أسرى المسلمين "والتي كانت ترجمة عملية لروح الأخوة والمودة التي أوجبها الإسلام على أتباعه"(٦٦).

فمن أهم هذه الأوقاف: وقف السلطان صلاح الدين رحمه، فإنه "لما ملك ديار مصر وقف وقفاً عظيماً في بلبيس على كثرته على فكاك الأسرى"(٦٧).

وللقاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني "صنائعه في الرقاب، وأوقافه على سبل الخيرات متجاوزة على الحساب، لا سيما أوقافه لفكاك أسرى المسلمين؛ فقد كان له ربع عظيم في مصر يؤجر بمبلغ كثير أوقفه على فكاك أسرى المسلمين"(٦٨).

وكذلك دارٌ أوقفها على فكاك الأسرى من المسلمين ببلاد الفرنج، ودارٌ أخرى أوقفها ولها

---

(٦٢) ينظر: الوقف والحياة الاجتماعية في مدينة دمشق خلال العصر الأيوبي: ص١٦٠.

(٦٣) ينظر: خانقاوات الصوفية، في العصرين الأيوبي والمملوكي: عاصم محمد رزق، مكتبة مدبولي، ط١، ١٤١٧ه: ٧٨/١.

(٦٤) ينظر: روائع الأوقاف في الحضارة الإسلامية: ص١١٩.

(٦٥) تاريخ المستبصر أبو الفتح يوسف بن يعقوب بن محمد، المعروف بابن المجاور، راجعه: ممدوح حسن محمد، مكتبة الثقافة الدينية-القاهرة، ١٩٩٦م: ص١٨٧.

(٦٦) روائع الأوقاف في الحضارة الإسلامية: ص١١٨

(٦٧) ينظر: كتاب الروضتين لأبي شامة عبدالرحمن بن إسماعيل المقدسي، ت: إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة-بيروت، ط١، ١٤١٨ه: ١٠٤/٢.

(٦٨) ينظر: شذرات الذهب لابن العماد: ٥٣٣/٦، صلاح الدين الأيوبي وجهوده: ص٣٠٨.

دخل عظيم، يجمع ويشترى به الأسرى من بلاد الفرنج، فيحضر الأسرى ويلبسون اللباس ويطوفون ويدعون له، فيقولون: يا الله يا رحمن يا رحيم، ارحم القاضي الفاضل عبد الرحيم، رحمه الله رحمة واسعة(٦٩).

وخُصص من وقفية البيمارستان القيمري الذي نسب إلى منشئه أبي الحسن بن أبي الفوارس القيمري؛ جزءاً من أوقافه على فكاك الأسرى(٧٠)،

وكذا حبس مسرور الطواشي أحد خدام السلطان صلاح الدين رحمه الله خاناً للأسرى والفقراء بالحرمين، وهو مئة بيت إلا بيتاً وبه مسجد جامع(٧١).

ومن الأوقاف الاجتماعية المشهورة في العصر الأيوبي؛ وقف الذري، والذي يعد دعامة اجتماعية للمحافظة على تماسك الأسرة وحفظ الأنساب وصلة الأرحام، ويعود ازدياد الأوقاف على الأولاد والذراري لعديد من الأسباب؛ ومنها: الميل الفطري لمحبة الأبناء والخوف عليهم من الفقر، أو يعمد بعضهم إلى الإضرار بالورثة، أو الخوف من مصادرة الأملاك والأراضي(٧٢).

وعين لأبناء السبيل من المغاربة خبزتين لكل إنسان في كل يوم بالغاً ما بلغوا، ونصب لتفريق ذلك كل يوم إنساناً أميناً، فقد ينتهي في اليوم إلى ألفي خبزة أو أزيد بحسب القلة والكثرة، وهكذا دائما(٧٣).

وكذلك من الأوقاف العظيمة التي تدل على قيمة المواساة؛ المرافق المهيئة لاستقبال الغرباء والعناية بهم، يقول الرحالة ابن جبير في رحلته إلى دمشق: "ومرافق الغرباء بهذه البلدة أكثر من أن يأخذها الإحصاء"(٧٤).

وكذلك وقف الخان لأبناء السبيل والمسافرين الذي بناه الأمير بهاء الدين قراقوش في القاهرة وبه بئر ساقية وحوض(٧٥).

ثالثاً: المجال الصحي:

تظهر أهمية الأوقاف في المجال الصحي مساندتها الدولة الأيوبية في أحلك الظروف

(٦٩) ينظر: المواعظ والاعتبار للمقريزي: ١٤٤/٣.
(٧٠) ينظر: الوقف والحياة الاجتماعية في مدينة دمشق خلال العصر الأيوبي: ص١٦١.
(٧١) ينظر: المواعظ والاعتبار للمقريزي: ١٦٧/٣.
(٧٢) ينظر: الوقف والحياة الاجتماعية في مدينة دمشق خلال العصر الأيوبي: ١٧٠-١٧٤.
(٧٣) رحلة ابن جبير: ص١٥.
(٧٤) رحلة ابن جبير مرجع سابق: ص٢٣٠.
(٧٥) ينظر: المواعظ والاعتبار للمقريزي: ١٦٩/٣.

التي مرت بها وأصعبها؛ مما يعكس الأهمية لتلك المؤسسات العلاجية التي كرست لعلاج المرضى والمصابين والجرحى(٧٦)، ومن هذه المؤسسات وأعظمها:

البيمارستان الصلاحي: الذي بناه وعمره صلاح الدين وأوقف عليه الأوقاف(٧٧)، ويذكر ابن جبير في رحلته إلى القاهرة، فيقول: "ومما شاهدناه أيضاً من مفاخر هذا السلطان؛ المارستان الذي بمدينة القاهرة، وهو قصر من القصور الرائقة حسناً واتساعاً، عين له قيماً من أهل المعرفة وضع لديه خزائن العقاقير، ومكنه من استعمال الأشربة وإقامتها على اختلاف أنواعها، ووضعت في مقاصر ذلك القصر أسرة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكسى، وبين يدي ذلك القسم خدَمة يتكلفون بتفقد أحوال المرضى بكرة وعشية، فيقابلون من الأغذية والأشربة بما يليق بهم، وبإزاء هذا الموضع؛ موضع مقتطع للنساء المرضى، ولهن أيضاً من يكفلهن"(٧٨)، وكذا البيمارستان الذي بناه صلاح الدين بالقدس أوقفه وعين له كبار الأطباء ووقف عليه أوقافاً كثيرة(٧٩).

ومن البيمارستانات التي كانت تؤدي دوراً مهما في المجتمع ولها أوقاف عظيمة؛ البيمارستان الذي بناه أبو الحسن القيمري "الذي كان يلبي الاحتياجات الصحية للمجتمع الدمشقي، على درجة راقية في تقديم الخدمات للمرضى، والعناية بهم، وتوفير الأدوية لهم"(٨٠)، وجعل له وقفاً لمعالجة المرضى والأدوية وأجرة للطبيب والمشرفين والمعالجين(٨١).
وكانت ست الشام بنت أيوب أخت صلاح الدين من أكثر النساء صدقة وإحساناً إلى الفقراء والمحاويج، وكانت تعمل في كل سنة في دراها بألوف من الذهب أشربة وأدوية وعقاقير وتفقره على الناس(٨٢).

مما سبق يتضح دور الأوقاف في رفد الثقافة الإسلامية في العصر الأيوبي، والتي شملت مناشط عديدة في واقع الثقافة الإسلامية، دينياً وعلمياً واجتماعياً وصحياً، وكانت عاملاً كبيراً في استمرار العملية التعليمية، بحيث كانت الأوقاف سبباً للاطمئنان النفسي للمعلمين والمتعلمين، بتوفير الجرايات الشهرية والمؤونة والسكن، وراتب المعلمين، وحتى

(٧٦) ينظر: الوقف والحياة الاجتماعية في مدينة دمشق خلال العصر الأيوبي: ص١٥٦.
(٧٧) ينظر: النجوم الزاهرة ليوسف بن تغري بردي وزارة الثقافة والإرشاد- مصر: ٧٩/٦.
(٧٨) رحلة ابن جبير: ص٢٦.
(٧٩) صلاح الدين الأيوبي وجهوده: ص٣٥٠.
(٨٠)ينظر: الوقف والحياة الاجتماعية في مدينة دمشق خلال العصر الأيوبي: ص١٧٦.
(٨١) ينظر: خطط الشام: محمد بن عبد الرزاق كرد علي، مكتبة النوري- دمشق، ط٣، ١٤٠٣ه: ١٥٨/٦.
(٨٢) ينظر: البداية والنهاية لابن كثير: ٨٥/١٣.

العناية الصحية، عوضاً عن الانشغال بتوفير متطلبات السكن والمعيشة، كذلك قدمت لنا صورة جلية وواضحة عن مدى التكافل بين أبناء المجتمع المسلم، الذي يجسد مبدأ الأخوة الإسلامية، والتكافل الاجتماعي.

فقد كثر بناء المساجد والمدارس، فهذه دمشق "قد انتشرت المساجد بها بشكل كبير، وأصبحت تعج بالمصلين والمتعبدين، وتكفل الوقف بإعمار بعض المساجد وإيصال الماء إليها، ونفقات طلاب العلم الذين يتدارسون العلوم الدينية والمعارف والآداب[٨٣].

الخاتمة:

خلص البحث إلى جملة من النتائج والتوصيات، على النحو الآتي:

١- انتشار الوقف في العصر الأيوبي في كثير من مجالات ومناحي الحياة الاجتماعية والحضارية عموما، الأمر الذي كان له الأثر الكبير في الدفع بعجلة التنمية الحضارية في واقع وحياة المسلم حينها.

٢- كان لتنوع فئات المجتمع المختلفة بالوقف أثره ودلالته فيما وصلت إليه النهضة الحضارية في العصر الأيوبي، الأمر الذي يستوجب الاهتمام بالأوقاف واستغلالها في المناشط العلمية والاجتماعية والحضارية عموما في الوقت الراهن.

٣- توصل البحث إلى دور المرأة وحضورها البارز في الوقف في العصر الأيوبي من خلال الأوقاف التي سبلتها في مختلف مجالات الحياة الاجتماعية والعلمية والصحية.

٤- إن تعدد منافع الوقف الحضارية والإنسانية وتطبيقها عمليا في العصر الأيوبي دليل واضح على قيم الإسلام العظيمة وعلى عالمية الإسلام وشموليته لكل بني الإنسان

(٨٣) ينظر: الوقف والحياة الاجتماعية في مدينة دمشق خلال العصر الأيوبي: ص١١٩.

المصادر والمراجع:

الانتصار لواسطة عقد الأمصار في تاريخ مصر وجغرافيتها: إبراهيم بن محمد المشهور بابن دقماق، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت.

البداية والنهاية لابن كثير: دار الفكر، ١٩٨٦م.

تاج العروس للزبيدي، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ.

تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر: عبدالرحمن ابن خلدون، ت: خليل شحادة، دار الفكر–بيروت، ط٢، ١٤٠٨هـ.

التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني في المشرق الإسلامي من القرن الخامس الهجري حتى سقوط بغداد، عبدالمجيد أبو الفتوح بدوي، دار الوفاء للطباعة والنشر، ط٢، ١٩٨٨م.

تاريخ المستبصر: أبو الفتح يوسف بن يعقوب بن محمد، المعروف بابن المجاور، راجعه: ممدوح حسن محمد، مكتبة الثقافة الدينية–القاهرة، ١٩٩٦م.

تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بني أيوب: أحمد فؤاد السيد، مكتبة مدبولي، ط١، ٢٠٠٢م.

التعريفات: علي بن محمد الجرجاني، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٣هـ.

حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة: جلال الدين السيوطي، دار إحياء الكتب العربية، مصر، ط١، ١٩٦٧م.

الحضارة الإسلامية، أحمد عبدالرحيم السايح، مجلة الجامعة الإسلامية، طبعة السنة العاشرة، العدد الثالث ١٣٩٧هـ.

خانقاوات الصوفية في العصرين الأيوبي والمملوكي: عاصم محمد رزق، مكتبة مدبولي، ط١، ١٤١٧هـ.

خطط الشام: محمد بن عبدالرزاق كرد علي، مكتبة النوري –دمشق، ط٣، ١٤٠٣هـ.

الدراس في تاريخ المدارس: عبدالقادر بن محمد النعيمي الدمشقي، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٠م.

ذيل مرآة الزمان، قطب الدين موسى بن محمد اليونيني، دار الكتاب الإسلامية–القاهرة، ط٢، ١٩٩٢م.

رحلة ابن جبير لمحمد بن أحمد بن جبير الكناني، دار ومكتبة الهلال –بيروت.

روائع الأوقاف في الحضارة الإسلامية: راغب السرجاني، نهضة مصر للطباعة والنشر، ط١، ٢٠١٠م.

شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد: دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط١، ١٩٨٦م.

صبح الأعشى في صناعة الإنشاء: احمد بن علي القلقشندي، دار الكتب العلمية–بيروت.

صحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، ج٤/١٩٩٩.

صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس: علي محمد محمد، دار المعرفة– بيروت، ط١، ١٤٢٩هـ.

العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين للفاسي: دار الكتب العلمية–بيروت، ط١، ١٩٩٨م.

الكامل في التاريخ لابن الأثير، دار الكتاب العربي لبنان، ط١، ١٩٩٧م

لسان العرب لابن منظور، دار صادر –بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ.

مختار الصحاح لزين الدين أبو عبدالله محمد بن أبي بكر الرازي، المكتبة العصرية –بيروت، ط٥، ١٩٩٩م.

مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، سبط ابن الجوزي، دار الرسالة العلمية دمشق، ط١، ٢٠١٢م.

معجم اللغة العربية المعاصرة: أحمد مختار عبدالحميد عمر، بمساعدة فريق عمل، عالم الكتب، ط١، ٢٠٠٨م.

معجم اللغة لابن فارس، ت: عبدالسلام محمد هارون، دار الفكر، ١٩٧٩م.

المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية المعاصرة (إبراهيم مصطفى وآخرون)، دار الدعوة.

من روائع حضارتنا: مصطفى السباعي، دار الوراق للنشر والتوزيع والمكتب الإسلامي، ط١، ١٤٢٠هـ.

منادمة الأطلال ومسامرة الخيال: لابن بدران، ت: زهير الشاوش، المكتب الإسلامي– بيروت، ط٢، ١٩٨٥م.

المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار: تقي الدين المقريزي، دار الكتب العلمية –بيروت، ط١، ١٤١٨هـ.

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: يوسف بن تغري بردي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مصر.

الوقف في الفكر الإسلامي: محمد بن عبد العزيز بن عبدالله، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ١٤١٦هـ.

الوقف وأثره في تشيد بنية الحضارة الإسلامية: إبراهيم بن محمد المزيني.

الوقف والحياة الاجتماعية في مدينة دمشق خلال العصر الأيوبي: مبارك عشوي فلاح، الأمانة العامة للأوقاف، الكويت، ١٤٣٨هـ.

الوقف والحياة الاجتماعية في مدينة دمشق خلال العصر الأيوبي: مبارك عشوي فلاح، الأمانة العامة للأوقاف، الكويت، ١٤٣٨هـ.